المحاضرة الحادية عشرة: مباحث الأدب المقارن ، الأجناس الأدبية /الأدب والأسطورة

الأجناس الأدبية تشكل إطاراً تصنيفياً أساسياً للأعمال الأدبية بناءً على خصائصها البنائية والوظيفية والجمالية، بينما تُعدّ الأسطورة أحد أقدم هذه الأجناس الأولية التي شكّلت مصدر إلهام وأساساً لتطور الآداب عبر العصور والثقافات. يرتبط الأدب بالأسطورة بعلاقة عضوية جدلية، حيث تتحوّل الأسطورة من رواية مقدسة طقسية إلى مادّة خام يُعاد تشكيلها في أجناس متنوعة مثل الملحمة والرواية والمسرحية، مما يُظهر ديناميكية التفاعل بين التراث الأزلي والإبداع المعاصر.

أولا: تعريف الأجناس الأدبية وتطورها التاريخي

تُعرّف الأجناس الأدبية كمجموعات من الأعمال الأدبية المتشابهة في الشكل والمحتوى والغرض، وتنقسم تقليدياً إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الشعرية (الغنائي والملحمي)، السردية (القصّة والرواية)، والدرامية (المسرحية والتراجيديا والكوميديا). يعود أصل هذا التصنيف إلى الفلسفة اليونانية القديمة، حيث ميّز أرسطو في كتابه "فن الشعر" (Poetics) بين المحاكاة (mimesis) في الدراما والملحمة، والسرد في

الشعر الغنائي، معتبراً كل جنس يحاكي الإنسان بطريقة مختلفة: بالفعل (الدراما)، بالسرد (الملحمة)، أو بالعاطفة (الغنائي).

في التراث العربي، انقسمت الأجناس إلى شعر ونثر، مع تفرّعات فرعية كالقصيدة العذراء والخطبة والمقتطفات السردية في "ألف ليلة وليلة"، وتطوّرت تحت تأثير النظريات الأوروبية في القرن العشرين، خاصة مع ترجمة أعمال إيف ستالوني في "الأجناس الأدبية" التي نقلت منهج داروين التطوري إلى دراسة الأدب، معتبرة الأجناس ككائنات حيّة تتكيّف مع السياقات الثقافية. هذا التطوّر أدى إلى ظهور أجناس هجينة حديثة مثل الرواية السحرية الواقعية، التي تجمع السرد بالرمز الأسطوري.

ثانيا: الأسطورة كجنس أدبي أولي وخصائصها الجوهرية

تُصنّف الأسطورة (mythos) كأقدم جنس أدبي سردي، وهي رواية مقدسة جماعية تفسّر نشأة الكون والإنسان والطبيعة والآلهة، مرتبطة بالطقوس والمعتقدات الدينية، كما في أساطير سومر وبابل ("جلجامش") واليونان ("الإلياذة" و"الأوديسة"). تتميّز الأسطورة بخصائص فريدة: الطابع الرمزي (الرموز الأزلية مثل التنين أو الفيضان)،

الطقسي (ترتبط باحتفالات موسمية)، الجماعي (تنتقل شفهياً عبر الأجيال)، والأزلي (لا تعرف زمناً تاريخياً محدّداً).

من منظور أدبي، ليست الأسطورة مجرّد خرافة، بل نصّ أدبي يجمع السرد والشعر والفلسفة، ويُولّد أجناساً لاحقة عبر عملية التناصّ (intertextuality)، كما أوضح رولان بارت في نظريته عن النص كشبكة إحالات. في الأدب العربي، تظهر الأسطورة في "لهفة العذاري" أو أساطير الجن في التراث الشعبي، حيث تتحوّل إلى سرد يعكس الهوية الثقافية.

ثالثا: العلاقة الجدلية بين الأدب والأسطورة

ترعرع الأدب في أحضان الأسطورة، التي أصبحت مصدر إلهام أساسياً، لكن العلاقة مشوبة بالتوتر بين الغموض الأسطوري (الذي يقبل التأويلات المتعدّدة) والدقّة الأدبية (التي تسعى للمعنى الواحد). يستقي الأدب من الأسطورة رموزاً أزلية لتأثيث خطاباته، كما في الرواية الجزائرية المعاصرة التي توظّف الإرث الأسطوري الإنساني (جلجامش) والعربي (قصص الأنبياء) لمواجهة قضايا الهوية والاستعمار.

مع الحداثة، أعادت الأجناس الأدبية صياغة الأسطورة: الرومانسية أحيَتْها عاطفياً (كولريدج في "قصيدة القديس العجوز")، والواقعية السحرية (ماركيز في "مائة عام من العزلة") حوّلتها إلى بنية سردية، بينما الدراما الحديثة (بريخت) استخدمتها للنقد الاجتماعي. هذا التفاعل يُظهر الأسطورة كـ"مخزون لا نهائي" للإبداع، كما وصفها ميشيل إلياد.

رابعا: تطبيقات في الأجناس الأدبية: أمثلة مقارنة

1- الملحمة كامتداد أسطوري:

تنبثق الملحمة من الأسطورة كسرد بطولي طويل يمجّد أبطالاً أسطوريين، مثل "الشاهنامة" للفردوسي (أساطير فارسية عن رستم) أو "الإلياذة" لهوميروس (حرب طروادة)، حيث تتحوّل الأسطورة إلى شعر منظّم يعكس قيماً وطنية.

02- المسرحية والدراما الأسطورية

تحوّل المسرح الأسطورة إلى حوار درامي حيّ، كتراجيديات سوفوكليس عن "أوديب الملك" (القدر والخطيئة)، أو في العربي "أهل الكهف" لتوفيق الحكيم، الذي يمزج الأسطورة القرآنية بالدراما الوجودية.

الرواية الحديثة وإعادة صياغة الأسطورة

تُعيد الرواية بناء الأسطورة كبنية، كـ"أوليس" لجيمس جويس (بناءً على "الأوديسة"، يوم واحد في دبلن يعكس رحلة أوديسيوس)، أو روايات الجزائريين مثل عبد الله كروم الذي يستلهم أساطير أمازيغية لسرد الهجرة والاغتراب.

شروط التحليل النقدي للأسطورة في الأجناس الأدبية

لدراسة هذه العلاقة علمياً، يشترط:

(1) تتبّع التناصّ التاريخي (كيف انتقلت الأسطورة عبر الترجمة أو الشفهية)،

(2) تحليل التحويلات الجمالية (من رمز مقدس إلى صورة فنية)،

(3) مراعاة السياق الثقافي (كيف تُقرأ الأسطورة في مجتمع حديث).

هذه الشروط تحول الدراسة من انطباعية إلى منهجية، كما في بحوث الموروث الأسطوري في الأدب المقارن.

المصادر والمراجع:

- حسام الخطيب: آفاق الأدب المقارن
- سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن
- سيميوطيقا الحضور المهيمن للشخصية الغائبة في نسقي الدين والأسطورة (رواية الطريق نموذجا) السيد محمود عبد الباري تهامي بركات. https://asjp.cerist.dz/en/article/217696
- تفاعل الرواية والأسطورة في الرواية الجزائرية، رواية (الحوات والقصر) للطاهر وطار أنموذجا سعادنة وائل فخر الإسلام . خشة عبد الغاني . https://asjp.cerist.dz/en/article/251650